البلاغة العصرية واللغة العربية

تأليف الأستاذ سلامة موسى

للأستاذ أحمد محمد الحوفي

— ٢ —

العقاد سلفي الذهن في لغته ، وأسلوبه ، وتفكيره ، وسلوكه — ٩٩ في المئة من كتابنا كذلك — الكلاسية داء مصر والشرق — كتابنا أعداء الكلمات الأجنبية

— ١ —

« وقد التفتُّ إلى عبارة قالها الأستاذ عباس محمود العقاد بشأن الاشتراكيين في مصر لها مناسبة هنا ؛ إذ هم يدعون على غير ما يجب إلى اللغة العامية ، وقد حسب عليهم هذه الدعوة في قائمة رذائلهم ؛ لأنه هو يعتز بفضيلة اللغة الفصحى ، ويؤثر عن خالد بن الوليد أو حسان بن ثابت ، ولكنه غفل عن التفسير لهذه الظاهرة الاجتماعية ، وهي أن الاشتراكيين شعبيون يعتازون بالروح الشعبي ويعملون لتكوينه ، وهم لهذا السبب أيضاً مستقبليون وليسوا سلفيين ... في حين أنه هو سلفي الذهن في لغته وأسلوبه وتفكيره وسلوكه ، وليس الأستاذ العقاد وحيداً في هذه السلفية ، لأني أعتقد أن ٩٠ بل ربما ٩٩ في المئة من كتابنا سلفيون » ص ١١

« والكلاسية في مصر كما نراها في أيامنا ليست لغوية أدبية فقط بل هي اجتماعية مزاجية ذهنية ، فدعاتها مثلاً يهتمون كثيراً جداً في التأليف عن الخوارج في أيام علي بن أبي طالب ، ويهملون التأليف عن الخوارج على الديمقراطية في أيامنا ، وهم يدرسون رجال الأمس والأمس هنا قبل ١٠٠٠ سنة ميلادية ولا يدرسون رجال اليوم » ص ١٢٠

— ٢ —

يرحم الله أبا جعفر المنصور ، فقد قال : « إنه لم يُسِر أحد قط منكرة إلا ظهرت في آثاريده أو فلتات لسانه » وقد استعلنت المنكرة التي يكتمها الأستاذ سلامة في غضون كلامه ، وأطلت برأسها حين دعا إلى (الاشتراكية) في اللغة ، وحين غاظه أن يثلب العقاد (الاشتراكية) ؛ لأنها تدعو — فيما إليه تدعو — إلى التدلي في اللغة ، والتهوي بهذا الفن الجميل من سمائه العالية إلى منحدر الدهماء والطغام .

ثم تجرأ على العقاد فزعم أنه متحجر اللغة ، عتيق الأسلوب ، رجعي التفكير ، محافظ في سلوكه ، وكأنما لم يشف غله هذا التخصيص فتخرص على ٩٩ في المئة من كتابنا بأنهم كذلك آسنون ، وما دليله الذي يجول به ويصول ؟ دليله أنهم يكتبون عن خالد والخوارج ولا يكتبون عن رجال اليوم .

يا لها من دعوى خرقاء ، ويا لها من حجة جوفاء .

أيذم أسلوب العقاد وهو ما هو سلاسة وسلامة ونصاعة ؟

أذنب العقاد في نظر الناقد أنه يأخذ قلمه بقواعد اللغة وروحها فلا يلحن ، ولا يخطئ ، ولا يسف في تعبير ، ولا يحتاج إلى من يصحح له ما يكتبه كما يحتاج غيره ؟

لقد كتب العقاد في السياسة والأدب والتاريخ والقصة ، وأسلوبه في هذه الفنون كلها فارع بارع ممتع .

ثم كيف يتهم العقاد بأنه آسن التفكير ؟

لقد ألف عدة كتب ، وكتب مئات المقالات في شتى الموضوعات فلازمته فحولة الفكر ، وصاحبته سمة الاستقلال في الرأي ، وما وجدناه مرة يتضاءل كما يتضاءل غيره أمام رأي قديم ، أو فكرة لعالم أوروبي ، وحتى العلامة (فرويد) الذي يتعبد بآرائه الأستاذ سلامة قد نقده العقاد ، والعلامة (داروين) الذي يشايعه الأستاذ سلامة في كل نظرياته قد خالفه العقاد ، وبهذا الروح القوي الحر كتب العقاد ما كتب في القديم والجديد .

وما معنى أن العقاد سلفي في سلوكه ؟

أيعيبه لأنه ليس من أهل الخلاعة والمجانة واستباحة اللذات جهرة كما يفعل المغرورون من أدعياء الأدب والفن ؛ لأن الشذوذ والانحراف الخلقي في نظرهم وثيقة بأنهم ناس ليسوا كالناس ؟

أم يعيبه لأنه رجل يؤمن بالرجولة فلا يكتب مرة ليتملق

المرأة ، ويزعم لها أنها جديرة بالمساواة ، خليقة بأعمال الرجال ؟

أم يعيبه إذ لم يخرج على الأمة بصيحة تحقر أدبها ، وتبلبل لغتها ، وتزدري خصائصها وأخلاقها ، وتمتهن مفاخرها وأبطالها ؟ لست أدري .

— ٣ —

وليست هذه العيوب مقصورة على العقاد وحده ، بل يشركه فيها ٩٩ في المئة من كتاب مصر ؛ فمن بقي إذن ؟ لم يبق خالياً من العيوب إلا الأستاذ سلامة ومحررو بعض المجلات الشعبية ، فهم أرباب الأساليب والأفكار المرتضاة عنده ؛ لأنهم يسفون في تعابيرهم ، ويتوخون العامية في كتاباتهم ، ويختارون المجازات (البلدية) والكنايات (الشعبية) والموضوعات التافهة المبتذلة .

يا ويح الأدب العربي في هذا العصر إن كان قد حرم بيان (الزيات) الرفيع ، وأسلوبه الفياض بالحياة ، الفياح بعبير الجمال وعطر الفن .

وويل للأدب في هذا العصر وفي كل عصر إن استكان رُواده وشداته لدعوة الأستاذ فآثروا السهولة في تعبيرهم ، والاتضاع في تصويرهم والتدلي في لغتهم ، إذن لبرئ الأدب منهم ، وإذن لَسُمِّيت عليهم وجوه الجمال في تراثهم من أدب الأسلاف ، وإذن لعَمُوا عن السر في بلاغة القرآن وإعجازه ، وهذا كله بعض ما تقترفه هذه الدعوة الماسفة الهدامة .

— ٤ —

وكتابنا كلهم متخلفون رجعيون في رأي المؤلف ؛ لأنهم يُعَنُّون أنفسهم بالبحث في الماضي ، وتنضح أقلامهم بدراسة تراثنا المجيد ، ولا يكتبون عن الحاضر شيئاً

فأي حق في هذا وأي صدق !

لقد كتب العقاد عن الماضي بروح العصر ، وثقافة العصر ، والطرق الحديثة في البحث والتحليل ، وأسهم في بعث مفاخر هذه الأمة التي رادت العالم أحقاباً طوالاً ، وشارك في إحياء الأمثلة العليا من بطولتها ؛ لأن الأمم لا تنهض بحاضرها وحده ، بل لا بد لها من ماض مجيد يلهمها وينفخ فيها من روحه قوة وحيوية ، وهذا ما فعلته الدول الناهضة العالية اليوم ، وليس أهدم للأمة المتوثبة للمجد من تنكرها لماضيها الحافل ، وغفلتها أو تغافلها عما لها من عظائم وجلائل ، وأعجب عجباً لا ينقضي ممن دعا إلى الفرعونية مراراً وقد انقطع ما بيننا وبينها من نسب ، ثم لما بارت دعوته أخذ يعيب الذين يدرسون العرب ، ويكتبون عن أبطال العرب كأنه يرتبط بالفراعنة بنسب ثم لا يصله بالعرب سبب ! !

وربما دار بخلدي أنه يلحى العقاد وهيكل وطه والحكيم وغيرهم لأنهم كتبوا عن النبي محمد عليه الصلاة والسلام كتباً تخضع لطرائق البحث الحديث ولكنهم جلوا نواحي من عظمته ، وأبرزوا طرفاً من سمو رسالته ، ولم يجمح بأحدهم قلمه فيتقول أو يتهجم ، ثم كتب العقاد وهيكل في أبي بكر وعمر وخالد ، وكتب العقاد في علي والحسين وعائشة ، فلا والله ما وجدوا إلا صحائف من ذهب تتبلج بالعظمة والبطولة والنبالة ، وما قالوا إلا ما قرأوا في هذه الصحائف الخالدة ، ولو كانوا غير مسلمين ما تغير قولهم ولا حكمهم ، فالبطولة سحر غلاب يجتذب الولي الحميم ، والبدو الخصيم ، وشمس سافر ، تنمر بضيائها الباهر ، القريب والبعيد ، وتنفذ آرادها إلى واضح كفيه على عينيه .

وهل كتابنا اقتصروا على الماضي وحده كما يزعم ؟

لنستعرض بعض مؤلفاتهم ثم نحكم .

هذا هو (الزيات) كتب في تاريخ الأدب العربي كتابه ، فأرخ للأدب بأدب ، وكان مثل بوفون إذ كتب في التاريخ الطبيعي ببيان خلاب ، ومع ذلك فقد ترجم آلام فرتر لجيته ، وروفائيل للامرتين ترجمة يقرر الحاذقون للألمانية والفرنسية أنها كالأصل بلاغة وسمواً ودقة ، ويكتب منذ أكثر من عشر سنوات في مشكلاتنا السياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية .

وهذا هو (العقاد) كتب العبقريات ، ولكنه ألف (سعد زغلول) ، و (شعراء مصر وبيئاتهم) و (الحكم المطلق في القرن العشرين) و (هتلر) وغيرها ، وله مئات المقالات في شتيت الموضوعات والمناسبات .

وهذا (هيكل) ألف عن (محمد) و (أبي بكر) و (عمر) ولكنه ألف أيضاً عن (روسو) و (السياسة المصرية) الخ .

فأي منصف بعد ذلك يتجنى على كتاب مصر بأنهم يحيون

وعيونهم مشدودة إلى الماضي وحده ؟

ومن ذا الذي يجحد فضلهم في مسايرة الثقافة ، ومواثبة الحياة المتجددة المتطورة ؟

إنهم يواثبون الثقافة ولكن أكثر إنتاجهم — متأثراً بهذه الثقافة — شرقي الروح ، عربي الأسلوب ، إسلامي النزعة ؛ وكل ميزة من هذه الميزات مرة في بعض الأفواه ، فكيف بها مجتمعة ؟

ثم لماذا تضنّ نعوت العبقرية على (إميل لودفيج) لأنه كتب عن المسيح عليه السلام كتابة رائعة ، ويوسم كتابنا بالرجعية إذا ما كتبوا عن النبي محمد وخلفائه ؟

وإنه لعقوق أن يبهر ماضينا بعض المستشرقين فيجردون أقلامهم لتمجيده ، والكشف عن آلائه ، كما فعل (استانلي لين بول) في (قصة العرب في إسبانيا) فتغنى بمجدهم ؛ لأنهم كانوا شعلة النور في أوروبا بعد أن خمدت مدنية الرومان ، واندثرت حضارة اليونان ، وكما فعل (سيديو) ومؤلفو (تراث الإسلام) و (دائرة المعارف الإسلامية) ثم نعمى — ونحن ورائهم — عن هذا المجد فلا ننوه به .

ولماذا لا يعاب كتاب الغرب وهم ما فتئوا يكتبون عن هوميروس وأفلاطون وأرسطو والإسكندر ؟

الحق أن الأستاذ سلامة كثير الدعاوى ، غريب القضايا ، مفتئت على المنطق الذي يريده أساساً للفكر والأدب .

بقيت إشارة عجلى إلى خلط آخر في كتابه كالخلط الذي يبناه في لومه أبا تمام في المقال السابق ، تلك أنه نسب إلى العقاد التأليف عن (حسان) فليخبرنا متى كان ذلك ؟ اللهم إلا إذا أراد بحسان كل مشايع للرسول مناضح عن الإسلام .

— ٥ —

« يكره كتابنا الكلمة الأجنبية ، فيقولون سيارة بدلا من أتوموبيل » ص ٢٠

ودعا في كتابه إلى إدخال الكلمات الأعجمية على حالها ، واستدل بأن العرب أدخلوا في لغاتهم في العصر العباسي كلمات أعجمية .

ولكنه نسي أن العرب استعاروا كلمات من الفرس واليونان والهند بعد أن صقلوها أولاً صقلاً عربياً لتلائم منطقهم ، كلفظ آذربون من آذركون ، وديباج من ديوفار ونيروز من نوروز الخ وقلما استعملوا الكلمة الأعجمية على حالها ، وكان ذلك للتظرف والتملح فحسب مثل كلمة آب صرد بمعنى الماء البارد في قول العماني :

لما هوى بين غياض الأسد وصار في كف المزبر الورد

آلى يذوق الدهر آب صرد

على أنهم عربوا حيث افتقروا إلى كلمات تؤدي معاني خاصة ليس في لغتهم ما يؤديها . وإذا كان الأستاذ يستدل على جمودنا ومرونة الإنجليز بأن في لغتهم نحو ألف كلمة عربية فليدلنا على كلمة واحدة ينطقها الإنجليز كما ينطقها العرب .

على أن كتابنا محقون في أنهم لا يلجأون إلى الكلمة الأعجمية إذا كان في لغتنا ما يدل عليها ، أو نستطيع أن نشتق من لغتنا ما يؤدي معناها ، وما من شك في أن لفظ سيارة يؤدي المعنى ، وهو أخف نطقاً وأحلى وقعاً من لفظ أوتوموبيل ، وما من شك أيضاً في أننا إذا أبحنا لأنفسنا استعمال الكلمات الأعجمية على حالها وبغير ضرورة إلى استعمالها فقد حفرنا للغتنا وقوميتنا قبراً بأيدينا ؛ لأنه لن يمضي قرن واحد حتى تصير لغتنا خليطاً مشوهاً من عربية مهزومة ، وعامية مختلفة باختلاف الأصقاع والبيئات ، وأعجمية غازية متغشية ، ثم بعد قرن آخر تندثر العربية والعامية وتتفرنس أو تتجلنز ، ويصيبنا ما أصاب إخواننا العرب في تونس والجزائر ومراكش .

ومن الخير أن يقتصر التعريب على كلمات أعجمية لا مناص لنا من استعمالها في العلوم المختلفة ، ولا ضرر على لغتنا ولا على قوميتنا من ذلك ، ثم لتعرب الكلمات التي جدت في الصناعة وشئون الحياة إذا لم نجد في لغتنا أو مشتقاتها عديلاً لها ، وأما غير هذا فانحدار وانتحار ، وتخريب لبيوتنا بأيدينا ، ومعاذ الله أن يحيق بنا ذلك .

(يتبع)

أحمد محمد الحوفي

المدرس بالسعيدية الثانوية